الهوية الثقافية في السياق الإعلامي تحت ظل العولمة

د.عرقوب محمد (جامعة ابن خلدون تيارت)

عادل يوسف خوجة (جامعة بجاية)

1 - مشكلة البحث:

ازداد الاهتمام بقضايا الشباب ومشكلاتهم المعاصرة في العالم العربي عموما والمجتمع الجزائري بوجه خاص لسببين: أن الشباب يشكلون شريحة كبيرة من هرم البلاد، وثانيا لما تتميز به هذه المرحلة العمرية من طاقة وقدرة على العمل والإنتاج و الإنماء.

لقد شهد المجتمع العربي سلسلة من التغيرات في جل المجالات السريعة والمتلاحقة في العديد من الجوانب الاجتماعية والثقافية والفكرية والاقتصادية، وكانت لهذه التغيرات آثارها السلبية في طمس معاني الحياة الإنسانية، واضطراب منظومة القيم الحاكمة لسلوك الأفراد وتصرفاتهم وعجزهم عن التواصل مع الآخر، وبالتالي العجز عن تحقيق الذات، وظهر على مسرح الحياة الاجتماعية حالة تبني الذات لقيم اللامعيارية، وبدأ المجتمع ينظر إلى الذات الملتزمة على أنها غير واعية ولا تعيش عصرها، مما يدل على أن انقلابا جذريا قد حدث في معايير القيم. (1)

ولعل أهم هذه التغيرات، التطور التكنولوجي الهائل خاصة في مجال الاعلام بشتى أنواعه (أنترنيت، قنوات فضائية، الاتصالات...إلخ) الذي يسعى إلى إرضاء زبائنه، من خلال ما يقدمه من خدمات، ولاشك أن الشباب هم الفئة الأكثر استهدافا لهذا التطور، لأنهم هم الأكثر اقتناء لهذه المواد.

وبهذا شاركت وسائل الإعلام في إثارة الغريزة والفردانية ودافعية الانحراف، التي تتحول من صورة ذهنية إلى فعل اجتماعي بحت عن طريق المحاكاة والتقليد وعمليات التطبع الاجتماعي.

يمتلك الإعلام الإمكانية على الحراك ومخاطبة القسم الأعظم من التكوين المجتمعي، كما يمثل عنصرا هاما في حياة المجتمعات باعتباره الناشر والمروج الأساسي للفكر والثقافة، مما تتحدد من خلاله هوية الأفراد، وتشكيل الوعي الاجتماعي لهم، إلى جانب الأسرة ومؤسسات ومنظمات المجتمع المدني، التعليمية منها والتنظيمية . من البديهي أن وسائل الإعلام إن لم تكن لها القدرة على ترسيخ ثقافة المجتمع وهويته فإنها تؤدي إلى تزييف الوعي وإفساد العقول. (2)

ولا بد من الاعتراف بأن الشباب العربي هو أكثر فئات المجتمع تأثرا بعمليات الغزو الثقافي، نتيجة للانفجار المعرفي الهائل، وتطور وسائل الإعلام الجماهيرية، وبالذات الفضائيات التي

توصف وسائل الإعلام بوصفها الراهن إذ تمثل متغيرا اجتماعيا، وثقافيا مهما في حياة الشباب، فهو المصدر الرئيسي للمعلومات والتعلم وهو أحد مصادر عمليات تشكيل الهوية الثقافية في عصر العولمة الإعلامية.(2)

وفي هذا السياق، يورد محمد الذواوي (2002) في كتابه: "عولمة الهوية الثقافية لبلدان العالم الثالث" : أن أهم ملامح التخلف اللغوي والثقافي يرجع إلى تقليد الغرب، الطرف الغالب في التوزيع الحضاري الراهن، وبهذا يرتبط هذا التقليد بنظرية ابن خلدون التي تصف تقليد الطرف المغلوب للطرف الغالب في دورات الحضارات، وهذا ما يوضحه في أبعاد التخلف الثقافي والنفسي.(3)

من بين اتجاهات العولمة، الاتجاه الثقافي الذي تندثر بمقتضاه الخصوصيات الثقافية وأنماط الاستهلاك أمام نقل الثقافات والأفكار إلى المستوى العالمي مما يسمح ببروز مفاهيم إنسانية مشتركة عابرة لكل المناطق، وبالتالي فهدف العولمة الثقافية ليس هو خلق ثقافة عالمية واحدة بل هو خلق عالم بلا حدود ثقافية، لكن من الملاحظ أن الثقافات الوطنية أصبحت تنصهر في ثقافة العولمة بهدف ترسيخ نمط ثقافي معولم (هو النمط الغربي) تهيمن عليه قيم المجتمعات الأكثر تقدما.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما المقصود بالهوية الثقافية وما هي عوامل تشكيل وجودها والتحديات التي تواجهها في ظل العولمة؟

بناء على ما سبق يمكن طرح الإشكال لهذا البحث في التساؤلات التالية:

1- ما هي تأثيرات عولمة وسائل الإعلام على الهوية الثقافية؟

2-هل هناك علاقة بين الهوية الثقافية والتطور التكنولوجي الذي تشهده وسائل الإعلام؟

3- هل باستطاعة العولمة هدم الهوية الثقافية؟ وفي أي إطار يمكن لها ذلك؟

الهوية تعني جوهر الشيء وحقيقته، إنها كالبصمة للإنسان يتميز بها عن غيره، وقد شخصها " إليكس ميكشيللي " بأنها " عبارة عن مركب من العناصر المرجعية والمادية والذاتية المصطفاة التي تسمح بتعريف خاص للفاعل الاجتماعي، فالهوية طالما أنها مركب من عناصر فهي بالضرورة متغيرة في الوقت ذاته الذي تتميز فيه بثبات معين، مثل الشخص الواحد يولد ويشب ويشيخ وتتغير ملامحه وتصرفاته وأحياناً ذوقه (أي تتغير شخصيته)، ولكنه يبقى في الأخير هو نفس الشخص وليس شخصاً آخر.

والهوية هي التكوين النفسي الذي يبرر سلوك الأفراد وأفكارهم والخصوصية الثقافية أو " النمط الثقافي " أو " الذاتية الثقافية " والتي تسيطر على ثقافة ما وتطبعها بطابع خاص يميزها عن غيرها وهي ما أسمتها العالمة الأمريكية (روث بندكيت) بنظرية الصيغة الثقافية العامة.

والشعوب في سعيها لتحديد معنى لهويتها الثقافية. إنما تعني ذاتها وتعي تفرده ا مدركة أن التباين في الهويات الثقافية هو الذي يتيح ثراء في المحتوى الثقافي العالمي. وأن هذا التباين يستلزم قدرا كبيرا من التسامح للالتقاء والحوار بين الأمم والشعوب.

مع ازدياد ارتفاع تيار الفردانية صار محل اهتمام في ظل استمرار المجتمع في فقد وعيه الجماعي الذاتي، أدى إلى خلط أوراق الدول في تعريفها للهوية والمواطنة، خاصة بارتفاع تدفق الهجرة وتكوين شركات عابرة للقارات التي ترسو قواعدها عبر العالم بأسره، مما أكسبها أكثر قوة ونفوذا على الحكومات القومية والبرلمانات للدول الضعيفة، مما أدى إلى ظهور موضوعات اخترقت الواجهة الديموقراطية وأعطت لها وجها مميزا.

ومع ازدياد تقدم التكنولوجيا تحتم على المجتمعات حتى الأصيلة منها محاولة التحكم بهذه التكنولوجيا، والتي أصبحت خارج نطاق المراقبة، خاصة مدركات الانترنيت التي حولت العالم بأسره إلى قرية صغيرة، كان لابد من مشاهدة ظهور هويات جديدة واختفاء أخرى، فنجد بعض الدول التي ترتفع أسهمها الاقتصادية والعسكرية ترتفع من جهة أخرى أسهم هويتها التي تفرضها هي الأخرى كما تفرض اقتصادها.

ويترتب على ما سبق التساؤل الذي يفرض نفسه: هل العولمة تفرض التنويع الثقافي؟ وهل يتوجب على الدول التي ترغب في الالتحاق بركب الدول المتقدمة الالتزام بمعايير العولمة؟

إن ظاهرة العولمة القائمة تعتمد أكثر فأكثر على وسائل الإعلام والاتصال (TIC) قد قلبت من جهتها العلاقات الدولية التي انتقلت إلى العصر الإعلامي المدعم. وهذه الأخيرة تنقل كمّاً هاما من الإعلام تتجاوز سرعة نقله الحدود الوطنية، حتى في البلاد ذات الرقابة الأشد صرامة. والحال، وعلى الرغم من عرضها على أنها تقدم حاسم في تقاسم المعرفة، فإن التقنيات الإعلامية الحديثة، هذه الطرق السريعة الإعلامية الشهيرة، تبدو أنها أصبحت تدريجياً أداة إضافية لسيطرة الشمال على الجنوب، ووسط الدول الغنية، أداة استعباد الولايات المتحدة لشركائها. بات من الواضح الآن إذن إنه على الرغم من كل الدعاو ى الصاخبة التي تحيط بها، فإن العولمة ليست الترياق الشافي خاصة بالنسبة لهذا الشرق من اقتصاديات البلدان الفقيرة. (4)

تنوعت نظرة المتتبعين لظاهرة العولمة بين المؤيدين والرافضين لها، فلكل حجته في القبول أو الرفض. وهناك من غالى في تبنيه للعولمة دون أن يقيم اعتبارا للهوية الثقافية، واعتبرها واقعاً موضوعيا متحققا كالقدر، ولذلك يجب التعامل معها بوصفها سيرورة موضوعية والدخول فيها، باعتبارها فضاء .مفتوحاً على النظام الكوني. (5)

وهناك من يعتقد أن الحديث عن الهوية، أو أزمة الهوية في الحقيقة ليست حقيقية، وإنما هي أزمة مفتعلة توجد في الذهن أكثر مما توجد في الواقع، نتيجة لعدة عوامل لعل أهمها هي التغيرات والتحولات التي يشهدها العالم المعاصر وخاصة مع ظهور نظام العولمة.

قد تناولت مجموعة الدراسات موضوع الهوية والعولمة، فقد كانت دراسة اسماعيل الفقي (1999) حول مفهوم العولمة وعلاقتها بالهوية والانتماء، بحيث كشفت نتائج هذه الدراسة عن علاقة متغيري الهوية والانتماء بمتغير العولمة.

وقد تعددت وجهات نظر الرافضين للعولمة وأسباب رفضها، فمنهم من يرى فيها مزيدا من الاستغلال الاقتصادي، وما هي إلا حجة للنهب المباحة تحت شعار نقل التكنولوجيا والتقدم والازدهار، ويرى هؤلاء الرافضين أن حماية الهوية القومية والثقافية واجبة كوسيلة للتصدي لهذا الاستغلال.

وهناك فريق أخر من الرافضين لهذه الظاهرة لسبب ديني التي تعتبر استعمارا وطريقة لطمس الهوية الدينية، وذلك عن طريق اجتياح الهوية الدينية من طرف دول الغرب المتقدمة التي أغلبها لائكية على دول الجنوب المتمثلة في النموذج الأمريكي للحضارات والديانات الأخرى، فالعولمة عملية تهدف إلى هيمنة الفكر والثقافة الغربية على الثقافات الأخرى بدعوى التعاون والتواصل وإزالة الحدود والمسافات بين الدول والشعوب.

وقد خلصت دراسة أحمد كنعان [(6).] إلى ضرورة التسلح من أجل مواجهة دعاة العولمة وهيمنة القطب الواحد على العالم مستفيدين من التجارب العالمية ومن تمازج الثقافات محافظين على تراث أمتنا وأصالتها مؤمنين بقدرتها على ريادة العالم من جديد إذا ما أولت البحث العلمي اهتماما أكبر وخصصت له الميزانيات الملائمة للنهوض به، وأفادت من خبرات أبناء الأمة وباحثيها الذين يوزعون إبداعاتهم في أنحاء العالم.

ولكن التوجه إلى العولمة ليس شرا محضا و إنما السوء فيما تحمله هذه العولمة من شر، فهي كفكرة أو كنظام عام يشمل الإنسانية جمعاء، تتيح للإنسان حقه في التميز وتحقيق الذات وفرص التمتع بالإنجازات و المزايا العالمية الإيجابية، إلا أن هذه القيم في أسمى معانيها لا تتحقق من خلال ما تبشر به بعض الدول الغربية و خاصة أمريكا، وما تجنده من آليات و إجراءات سياسية و اقتصادية و ثقافية و إعلامية و تربوية ... إلخ تحاول فرضها كنظام سياسي اقتصادي ثقافي على العالم، و تحاول بذلك إفراغ مفهوم الهوية و الخصوصية من أركانها الرئيسية و يبقى السؤال قائما:

- هل هناك إمكانية لتغيير واقع الأمة العربية الإسلامية، و المحافظة على هويتها وخصوصيتها الثقافية في ظل تكالبات الأنظمة العالمية الغربية وفي المقابل في ظل التشتت والضعف العربي الإسلامي في جميع الميادين؟

ويرى ابراهيم الحسين أن العولمة تعطي الهوية الثقافية فرصة للانفتاح و التعرف والتفاعل مع مستجدات العلم والمعرفة، وأن العولمة تعطي فرصة لإعادة الديمقراطية لمجتمعاتها ولتجديد الهوية الثقافية لذاتها وإبداع أفرادها .

ويرى الدكتور معتز بالله عبد الفتاح بأن مفهوم الخصوصية الثقافية يتحدد من خلال خمسة أسئلة رئيسية:

1 - سؤال يتعلق بالهوية و تعريف الذات و تحديد الانتماء على أساس أركان الهوية (اللغة، الدين، العرق، المصير المشترك، التاريخ)
2 - سؤال التراث: ويشمل الرموز التاريخية التي يعتز بها الأفراد، ويعتبر التمسك بالتراث أحد مكونات الهوية على عكس ما تروج له الثقافات الدخيلة الغربية) بأنه عبء ثقيل لابد من تركه والتخلي عنه لمسايرة التقدم والرقي.
3 - سؤال الواقع: وهو تساؤل الأمم عن واقعها المعاش وعن مدى تخلفها أو تقدمها عن بقية الأمم ومعيار ذلك التقدم أو التخلف.
4 - سؤال الفرصة البديلة: ويتعلق بالخيارات المطروحة ومدى التعارض بينها.
5 - سؤال المستقبل: ويتعلق بتأثير الاستيراد الثقافي من الآخر على الهوية، فهو يطرح ردٌ فعل لكافة الأسئلة السابقة وربطها بعضها ببعض وتأثيرها في النهاية على سؤال الهوية.

تعني الهوية التفرد، والهوية هي السمة الجوهرية العامة لثقافة من الثقافات، والهوية ليست منظومة جاهزة ونهائية ،وإنما هي مشروع مفتوح على المستقبل ،أي أنها مشروع متشابك مع الواقع والتاريخ، لذلك فان الوظيفة التلقائية للهوية هي حماية الذات الفردية والجماعية من عوامل التعرية والذوبان، إن هذا التصور لمفهوم الهوية يجعلنا نميز بين تأويلين لمعنى الهوية:

أ - التصور الستاتيكي أو الماهوي للهوية، الذي يرى أن الهوية، عبارة عن شيء اكتمل وانتهى وتحقق في الماضي، ففي فترة زمنية معينة ، أو نموذج اجتماعي معين وأن الحاضر ما هو إلا محاولة إدراك هذا المثال وتحقيقه.

ب - التصور التاريخي والديناميكي للهوية الذي يرى أن الهوية شيء يتم اكتسابه و تعديله باستمرار ، وليس أبدا ماهية ثابتة، أي أن الهوية قابلة للتحول والتطور ، وذلك لأن تاريخ أي شعب هو تاريخ متجدد ومليء بالأحداث والتجارب، فإن الهوية الأصلية تتغير باستمرار، وتكتسب سمات جديدة،

وتلفظ أخرى وهذا يعني أن الهوية شيء ديناميكي وهو سلسلة عمليات متتابعة كما أنها تتحول مع الزمن فهي ديناميكية، وهي ترتبط بالأثر الذي تتركه الحضارة عبر التاريخ، ويمكن النظر إلى الهوية في صورتها الديناميكية على أنها مجموعة من المقررات الجماعية التي يتبناها مجتمع ما، في زمن محدد للتعبير عن القيم الجوهرية العقائدية (والاجتماعية والجمالية والاقتصادية والتكنولوجية والتي تشكل في مجموعها صورة متكاملة تعبر عن ثقافة هذا المجتمع. (7)

إن ترسيخ مبدأ التنوع وإنعاش فكرة الحوار بين الثقافات والتأكيد على ضرورة تفعيل التعاون الدولي الثقافي في إطاره الشامل، كفيل بأن يحد من الآثار الذي لا يقيم اعتبارا للهويات الثقافية والحضارية السلبية للعولمة في شكلها المتهجم لشعوب العالم. فالعولمة محكوم عليها أن تتعايش مع الهوية في إطار التنوع الثقافي من أجل الازدهار الإنساني والسلام العالمي وبذلك تصبح العولمة مرحمة وليست هيمنة ومظلمة. (8)

وبعضهم الآخر يرى أن التعامل الناجع مع العولمة لا يتم من خلال بعض المحاولات الدفاعية العربية الإسلامية وذلك في جعل هدفنا وموضوع طموحنا السيطرة الثقافية العالمية المعاكسة؛ بل هدفنا ينبغي أن يكون الخروج من الهامشية نحو الفعل والمشاركة مع بقية الإنسانية من أجل تقويض أسس السيطرة الأحادية وتعزيز إطار التعددية الثقافية الكونية في إطار الاحترام والتعاون والتفاعل الثري.

إن المحافظة على بقائنا لا يكون بالاختيار الأول الذي يعبر عن موقف الاندفاع والهرولة واللحاق بالركب دون فهم لطبيعة ما يجري وما يمكن أن تؤدي إليه عولمة التعلم، والأصح أن نتوجه نحو تعلم العولمة، أي فهمها ونعرف مبادئها وافتراضاتها والنتائج المترتبة عليها وتدريب أطفالنا وشبابنا على فنيات وآليات التعامل معها وإدراك ما تتضمنه من تهديدات وفوضى، فالعولمة ليست شرا خالصا كما أنها ليست خيرا محضا، وإنما هي شأنها شأن كل التحديات التي واجهت الإنسان طوال تاريخه تجمع بين المخاطر والإمكانيات.

ولا بد من الوقوف على أهمية الدور الذي تقوم به مؤسسات التنشئة الاجتماعية في غرس ودعم الخصوصية الثقافية لكل شعب في نفوس النشء وعقولهم، وانتقاء النافع من المعلومات واستخدام المعارف في إنتاج أفكار جديدة ومواد جديدة وإنتاج البرامج والأفلام الهادفة لمقارعة ما ليس من حياتنا الثقافية والدينية والاجتماعية.

إن تعدد أنماط العولمة أدت إلى تعدد التعريفات لهذا المصطلح، بحيث ركز كل منها على جانب معين من جوانب العولمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

العولمة السياسية: "العولمة السياسية هي عكس سيادة الدولة، أي فقدان الدولة لسيادتها، ودورانها في عجلة العالمية، وهو هدف تحاول الدول الراعية للنظام العالمي الجديد تحقيقه تحت مسمى العولمة وحدوث ذلك يؤدي إلى فقدان الدول نفوذها وتأثيرها في عالم السياسة." (6)

العولمة الاقتصادية: ويقصد بالعولمة الاقتصادية نشر القيم الغربية في مجال الاقتصاد مثل الحرية الاقتصادية وفتح الأسواق وترك الأسعار للعرض والطلب، وعدم تدخل الحكومات في النشاط الاقتصادي وربط اقتصاد الدول النامية بالاقتصاد العالمي، وتعكس هذه الظاهرة زيادة حركة رؤوس الأموال وتفسح المجال واسعا أمام أصحاب رؤوس الأموال لجمع المزيد من المال. (9)

العولمة الاجتماعية: وفيها " تتعرض مؤسسات المجتمع لكثير من الضغوط الخارجية التي تستهدف التأثير في معتقدات أبنائه ومشاعرهم واتجاهاتهم وانتمائهم إلى مجتمعهم من خلال مجموعة التقنيات الحديثة المتطورة، والبث الإعلامي المباشر واختراق سماء تلك الحدود ومن شأن ذلك التأثير في شخصية الفرد نفسيا واجتماعيا وعقليا بتقبل ما يستقبله من أفكار تؤثر في انتمائه للمجتمع" . (6)

العولمة الثقافية: وتشير إلى بروز الثقافة كسلعة عالمية تسوّق كأي سلعة تجارية أخرى ومن ثم بروز وعي وإدراك ومفاهيم وقناعات ورموز ووسائط ثقافية عالمية الطابع" .

وهي محاولة لوضع شعوب العالم في قوالب فكرية موحدة وذلك لسلخها عن ثقافتها وموروثها الحضاري، " فالعولمة نظام يقفز على الدولة والأمة والوطن، نظام يريد رفع الحواجز والحدود، إنه نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية للأمة من أي محتوى، ويدفع إلى التفتيت والتشتيت ليربط الناس بعالم اللاوطن واللاأمة واللادولة". (10)

2 - الهوية الثقافية والإعلام:

يرتبط الإعلام بالبيئة السياسية الدولية، وبالبيئة الاقتصادية، والاجتماعية، وبالبيئة الثقافية، وترى نظرية الإعلام التنموي أن وسائل الإعلام في أي نسق اجتماعي تعد بمثابة المؤشر والعامل الرئيس، أو الوكيل للتغيير فيه، وهكذا فإنه من المتوقع من وسائل الإعلام تغيير اتجاهات الناس وتعليمهم التوحد، أو الحراك النفسي المهم والضروري لعملية التغير الاجتماعي. (11)

لا تبدو براعة وسائل الإعلام في عصر العولمة وقدراتها الفائقة على صناعة القبول، عندما تلتزم بحد أدنى من المستوى الأخلاقي في عرض الحقائق والدفاع عنها، لأن الحق في ذاته قوة قادرة على الإقناع. إنما تظهر براعتها بقدر ما تنجح في صرف أنظار الناس عن صميم المشكلات وفي طمس الهويات الوطنية والحقائق واختلاق البدائل، وتزيينها في أعين الناس بغية

تغيير قناعاتهم حولها. ولابد لتسويغ وجودها من شطر الناس إلى نخبة واعية تفرض وصايتها على رعاع غبي لا يقوى بنفسه على إدراك مصالحه. ولابد أن تكون القوة في يد هذه النخبة لتقرر نوع المعلومات والأهداف المطلوبة للإقناع، فتتحرك الآلة الإعلامية، رغباً أو رهباً، لترويض الرعاع عليها. وتروج في نفس الوقت سوق النفاق، وازدواج المعايير، وتلك هي هيمنة وسائل الإعلام.

لا ينحصر دور وسائل الإعلام في النقل والنشر وحسب بل تحقق تعاضدها مع الثقافة نوع من التكامل الاجتماعي ويجعلها تلعب دورا أساسيا في بلورة الثقافة وإزالة ما لصق بها من التشوهات التي لحقتها.

باعتبار الهوية الثقافية جزء لا يتجزأ من الثقافة لمجتمع ما، فإن الاتصال هو أحد العناصر المكونة لهذه الثقافة، فلا يمكن تصور أي ثقافة بدون إبلاغ وترويج لها، لأنه مصدر تكوينها وعامل من عوامل اكتسابها وثرائها، ولا يمكن أن تنجح وسائل الإعلام بدون زاد ثقافي يشد اهتمام الجمهور إليها، لذلك نجد العلاقة بين الهوية الثقافية والإعلام هي علاقة تأثير وتأثر، إذ يعطيها الإعلام الشكل والوسيط، وتعطيه المعنى والروح.

وإن كان التشرذم والتفتت سمة مجتمعات ما بعد الحداثة، التي طبعتها التحولات الاجتماعية والاقتصادية والصناعية، مستحدثة بذلك تقاسيم جديدة للتقاليد والبنى الاجتماعية، مطورة أساليب الفردانية واللامركزية، فإن هذا التشرذم، وهذه اللامركزية تأخذ أبعادا وتغيرات أخرى مع التطور التكنولوجي للقرن المعاصر، الذي تلعب فيه تكنولوجيا الاتصالات الدور الفاعل والأبرز في تشكيل المفاهيم والأدوار. فالإنترنت، وبصفتها أهم فاعل تكنولوجي في العصر الحديث، لم تشكل وسيطا إتصاليا فحسب، بل هي أكثر الوسائط الاتصالية راديكالية بقلبها لمفاهيم الزمان والمكان والفضاء والتواصل، واستحداثها لمفاهيم وأطر جديدة للعلاقات الإنسانية، تشكلها وتقولبها الوسائط التكنولوجية والعوالم الافتراضية.

وسواء كان امتدادا أو نقيضا للواقع، يشكل هذا الحضور الرمزي الافتراضي فضاء للتعبير عن الذات الأصلية والأنا الداخلي الحقيقي، بعيدا عن إكراه الواقع وحدوده، فالفضاء الرمزي، وبما يميزه من لا مركزية واسعة وحرية، هو فضاء للانكشاف الحر غير المقيد، يسمح للفرد بالتفاعل والتواصل من وراء حجب الشاشات الصغيرة بطرائق متعددة.

وإن كان الحديث عن الشبكات الاجتماعية ضمن هذا العالم الافتراضي حديثا واسعا، فإن الحديث عن الفيسبوك بالذات لا يعد ترفا ولا مجازا، لكنها ضرورة تمليها الأرقام المتزايدة لمستخدمي هذه الشبكة دون غيرها من الشبكات، حيث يتجاوز عدد مستخدمي هذه الشبكة مليار مشترك فعال من بينهم ملايين من المشتركين العرب.

وهكذا تربع الفيسبوك شبكات التواصل الاجتماعي الذي أصبح الأكثر استخداما عند الانترنتيين الذين وجدوا على جدران هذا العالم الافتراضي مساحات للتعبير عن ذواتهم سواء كانت زائفة أو حقيقية، وكذا التعبير عن خلجات أنفسهم و آرائهم واتجاهاتهم ومشاكلهم من خلال إنشاء صفحات ومجموعات خاصة التي يطورون فيها أفكارهم الذاتية، وبذلك تتشكل الهوية الثقافية التي تكون غالبا افتراضية، وثمة يطرح الإشكال، لأن الممارسات الافتراضية التي تتعلق بالهوية لها امتداداتها ومداها وتأثيراتها في الهوية الوجودية للفرد، وابعادها الثقافية والاجتماعية.

وتتكون من خلال وسائل الإعلام الجديدة كيانات اجتماعية من أشخاص، مؤسسات اجتماعية ترتبط فيها بينها بروابط ناجمة عن تفاعلاتهم المتبادلة، حيث ستسمح تكنولوجيات المعلومة والانترنيت على وجه الخصوص لكل الفئات العمرية المختلفة بأن تعلن آرائها –ولو كانت غير رسمية-وأن تدافع عن مواقفها، لكن من سلبيات هذه التكنولوجيا هي استخدام الميديا من أجل فرض القيم والعادات والتقاليد، التي تكون في غالب الأحيان متعارضة مع قيم وثقافة المجتمع المحلية.

إذ يمثل الإعلام سلاح ذو حدين ورهان من اهم رهانات العولمة وآلياتها في تعميم الثقافة ونشرها، وغرس هوية حسب ما تمليه الثقافة الغربية التي تدعي الحداثة على حساب الدول النامية أو المتخلفة، بفرضها الخضوع دون الحاجة إلى التدخل العسكري، والسعي إلى إخضاع النفوس، وتعطيل العقل وتكييف المنطق والقيم وتوجيه الخيال وتنميط الذوق وقولبة السلوك، كما أنها تصادر الضمائر ومناهج التفكير وطرق العيش وتسكين الوعي الاجتماعي للأفراد.

3 - الهوية الثقافية والعولمة:

ورد على لسان صاموئيل هانتغتون في كتابه المنشور عام 1996 بعنوان " صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي " حيث ينطلق في نظريته المذكورة من فرضية مفادها أن المصدر الأساسي للنزاعات في العالم لم يعد يتحدد بالعوامل الاقتصادية أو الايديولوجية، وإنما بالمعايير الثقافية " فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية والمصدر المسيطر للنزاع سيكون مصدرا ثقافيا وستظل الدول والأمم هي أقوى اللاعبين في الشؤون الدولية لكن النزاعات الأساسية في السياسات العالمية ستحدث بين أمم ومجموعات لها حضارات مختلفة، وسيسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية، ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات تكون هي خطوط المعارك في المستقبل " (12)

هناك فريقان وردت آراءهم إزاء العولمة وعلاقتها بالهوية الثقافية، بحيث هناك فريق مؤيد للعولمة، مؤمنين بأنها جاءت من أجل أن تكون بديلا لكل الانتماءات الأخرى، ومن مؤيدي هذه الفكرة نجد رجال الأعمال الذين لا يهمهم إلا الكسب بشتى الطرق- الغاية تبرر الوسيلة- ونجد إلى جانبهم هؤلاء الأفراد التائهين، ونجد فريق آخر الذي يكون متفائلا اتجاه العولمة، وهو الذي يميل إلى الاعتقاد بأنه لا يوجد تناقض، إطلاقا بين العولمة والهوية، فالعولمة تسير في طريقها المعروف تعتمد على سيادة العلم، بينما يكون من حق كل واحد أن يحتفظ بهويته، كما شاء وعلى الطريقة التي يريدها، ولو تعددت الهويات داخلَ هذه العولمة.

العولمة تدعو إلى تجاوز الهوية القومية (الدين، اللغة، الأرض ، التاريخ) لصالح "هوية " أوسع، هوية كونية، فماذا يفعل الذين ما يزالون يسألون من نحن ؟ ماذا سيصنع الذين يدخلون القرن الواحد والعشرين بدون هوية، أو بدون(نية) واضحة.

إن سياسات ومآرب العولمة في المجال الثقافي التي تستهدف الهويات القومية ومقوماتها الرئيسة اللغة والدين والسمات التاريخية وأنماط العيش والسلوك والعادات والتقاليد ومعطيات الاختلاف والتمايز بين المجتمعات تضعنا أمام مسؤولياتنا المادية والمعنوية والروحية الجوهرية في الحياة البشرية.

وعلى ذلك فإن البعض يرى أن انتشار التكنولوجيا يغفر للعولمة أي تأثير سلبي على الهوية الثقافية، كما يرى البعض أن الهوية سوف تفيد من العولمة، أما الرافضون للعولمة فيرون أنها استغلال اقتصادي وأن حماية الهوية الثقافية واجبة كوسيلة للتصدي لهذا الاستغلال، وفريق آخر يرى أن العولمة آتية من دول تنكرت للدين، وآخرون يرون أن العولمة غزو يهدد هوية الأمة من خلال هوية أمة أخرى، حيث أن خطورة العولمة في المعلومات التي تبثها شبكات الإعلام، والتي تسيطر عليه القيم الغربية التي لا تتناسب مع قيمنا الإسلامية وأكثر ما تؤثر بالسلب على الهوية. (13)

من أجل الحفاظ على مكتسباتنا هذه أمام محاولات العولمة ومجابهة أي تهديد يؤدي إلى التغيير القسري والعمل على الاستفادة من الثقافات الأخرى من خلال الحوار البنّاء.

إن مخاطر العولمة على الهوية الثقافية إنما هي مقدمة لمخاطر أعظم على الدولة الوطنية والاستقلال الوطني والإرادة الوطنية والثقافة الوطنية، فالعولمة تعني مزيدا من تبعية الأطراف لقوى المركز.

فبإلقاء نظرة مقارنة على مظاهر التوتر والعنف الاثني والثقافي وبؤرها في العالم بين الماضي والحاضر فإننا نستنتج أن الحروب الأهلية والتوترات العرقية والقبلية آخذة في التأجج في عصر العولمة رغم لبوساتها السياسية (العراق- أفغانستان – الصومال – السودان).

والعولمة في أصلها اقتصادية، قائمة على إزالة الحواجز والحدود أمام حركة التجارة، لإتاحة حرية تنقل السلع ورأس المال، ومع أن الاقتصاد والتجارة مقصودان لذاتهما في العولمة، إلا أنها لا تقتصر عليهما وحدهما وإنما تتجاوزهما إلى الحياة الثقافية والحياة الاجتماعية بما تتضمنانه من أنماط سلوكية ومذاهب فكرية ومواقف نفسية، وكل ذلك هو الذي يصوغ هوية الشعوب والأمم والأفراد.

فالولايات المتحدة الأمريكية أعلنت بعد أن أصبحت الحاكم القوى في العالم أنها ستعمل على نشر القيم والسلوك الأمريكي ونمط الحياة الأمريكي في العالم كله وهو ما يفتح باب الغزو للشعوب وعقائدها وثقافتها فالعولمة بالرغم من الصبغة الاقتصادية لها فإنها تعمل من أجل أهداف أخرى تطال ثقافة الشعوب وهويتها القومية والوطنية ومصالحها وخصوصياتها في الصميم وترمي إلى تعميم نماذج وأنماط من السلوك والعيش وفرض منظومات من القيم وطرائق التفكير والتدبير وتكوين رؤى وأهداف تعمل في خدمتها ومن ثم فهي تحمل ثقافة تغزو بها ثقافات ومجتمعات أخرى وتؤدي إلى تخريب منظمات وقيم وإحلال قيم أخرى محلها ليست بالضرورة أفضل من القيم التي لحق بها التخريب فضلا عن كونها لا ترتبط بخصوصيات الأمم وثقافاتها ولا يخلو ذلك من توجه استعماري جديد يتركز على احتلال العقل والإرادة وجعلهما يعملان وفق أهداف المستعمر وفي إطار خططه ومصالحه مع تحييد قوة الدولة أو إنهاكها واستلابها وانتزاع مقومات حضورها وتأثيرها الاجتماعيين وفرض نوع من الإدراك الواقعي مع إلحاق شلل بالوعي المنقذ والإرادة والقوة وطاقات الروح وبالإيمان وقدراته الخلاقة عند المؤمنين. (14)

وقد تجاوز مخطط التفتيت للمجتمع العربي الأبعاد السياسية والجغرافية إلى الأبعاد الاجتماعية والثقافية والفكرية والروحية وتأتي العولمة لتحقيق هذه الأهداف. إن النظام الأمريكي يعمل على تدمير البنى الثقافية للبلدان النامية من خلال تدمير بناها المجتمعية وعزل الثقافة عن الواقع وتهميش المثقف والحد من فاعليته في حياة مجتمعه لذا فإن العولمة أصبحت تحمل في طياتها نوعا آخر من الغزو الثقافي أي قهر الثقافة الأخرى لثقافة أضعف منها لأن العولمة لا تعني مجرد صراع الحضارات أو ترابط الثقافات بل أنها توصي أيضا باحتمال نشر الثقافة الاستهلاكية والشبابية عالميا والخطورة في هذه الثقافة وبهذا تختلف العولمة عن العالمية والتي تعني إغناء للهوية الثقافية بينما العولمة تعني اختراقا فالاختراق العولمي يعني إلغاء الحوار والتبادل الحضاري

والحلول محله ويستهدف العقل والنفس و هما الأداتان اللتان بهما يتم التفسير والتأويل والتسريع وقبول ما هو مفيد ومحاربة ومواجهة ما لا يتناسب مع خصائصنا بحيث انتقل من السيطرة عن طريق الإيديولوجيا إلى السيطرة عن طريق الصورة السمعية والبصرية التي تسعى إلى تسطيح الوعي.

إن انفتاح العالم العربي الإسلامي على الغرب لم يحدث طوعا، فقد جاء على طريقين أوسعهما محاولات النفوذ الأجنبي التي توجهت بسيطرة الاستعمار مباشرة على معظم أقطار المسلمين وسيطرته المقنعة على البقية، والطريق الآخر هو انفتاح الحكومات المسلمة التي أرادت تعزيز سلطاتها بتحديث إدارتها وجيوشها، فأرسلت البعثات إلى العواصم الغربية واستقدمت المستشارين والخبراء الأجانب.[15]

والمجتمع الجزائري كغيره من المجتمعات العربية والإسلامية التي تعاني بدورها خطر العولمة الثقافية، فالمسألة الثقافية في المجتمع الجزائري تبدو شائكة لبعض الدارسين نظرا للتعدد الثقافي الموجودة فيه، فالمتتبع لواقع الهوية الثقافية الجزائرية يلاحظ كما ذكرنا سابقا أنها متعددة الأبعاد ومتشعبة الأطراف، نلاحظ غلبة التوجه الفرنسي فيها على سبيل المثال لا سبيل الحصر ولهذا يحتدم الصراع بين المعربين والمفرنسين وبالتالي نحن في مواجهة أزمة لغوية وثقافية في الجزائر فعلى الرغم من تنوعه الثقافي إلا أنه قائم في إطار وحدة ثقافية وطنية واحدة " فالقبائلية والشاوية والمزابية والتارقية ... ليست ثقافات منغلقة ومعيقة للتحديث والوحدة والتحول، بل هي واحدة من المكونات الأساسية للهوية الوطنية ولا يحق لأي جهة احتكارها، هذه الأخيرة التي تبدو في صور عدة منها الهوية المستمرة وهي الخطوط الكبرى التي تتناقل جيلا بعد جيلا ويكون المجتمع بواسطتها هو ذاته لا الآخر، أما الهوية المتحولة فتتشكل بواسطة التأثيرات التي تتلقاها ولكن تتحول عموما داخل الاستمرار ذاته.[16]

غير أن هذا الوجود بات مهددا في الوقت الذي أصبحت فيه المجتمعات الغربية تروج لثقافاتها وأنماطها السلوكية المتناقضة مع شخصيتنا العربية الإسلامية عبر وسائل إعلامية مختلفة، فأصبح هاجس الخصوصية في الهوية الثقافية والوطنية هو نفسه هاجس الأصالة والمعاصرة معا ومحاولة تنميط سلوكيات البشر وثقافتهم في المجتمعات كافة وإخضاعها لقيم وأنماط سلوك سائدة في ثقافات أخرى لمجتمعات حديثة، الأمر الذي يحمل إمكانية تفجير أزمة الهوية الثقافية التي أصبحت من المسائل الرئيسية التي تواجه المجتمعات الإنسانية على المستوى العالمي.

فالهوية نخرج بموجبها من حالة العدم إلى طور الوعي بالذات، وتطرح في مقابل ذلك فكرة الوعي بوجود آخر مختلف وبالتالي تدفع إلى النظر في المعني الكينوني للإنسان وفي مراكز التقاء الجماعة أو تنافرها، هذا إلى جانب ما تحتمله لفظة « التحديث أو الحداثة » من محمولات عقلية انتقائية أو ترجيحية أو نمطية فاعلة في الهوية.

فمحاولة الترنح بين صدمة العولمة وما حملته من قيم جديدة ونرجسية قيمنا الأصيلة، وما تتركه الأولى من جرح عميق يحتاج لفعل معرفي لتجاوزه، وما تتصف به الثانية دفع الكثير من المفكرين للمزج بين قيمنا الأصيلة وما احتوت عليه العولمة من قيم، فالواقع الاجتماعي بنموذجيه الثقافي والطبقي لم تتح له الفرصة بعد لمعايشة التكوينات الحديثة أما النرجسية في قيمنا الأصيلة والتي تعتبر إحدى العلامات المميزة للثقافات المغلقة وهي بعيدة جدا عن سمات الثقافة العربية الإسلامية. (17)

4 - كيفية الحفاظ على الهوية الثقافية في ظل العولمة:

تعتبر التغيرات السريعة والمتلاحقة في هذا العالم هي التي أوجدت وضعا استثنائيا يهدد هويتنا الثقافية في بنائها وفي وجودها وحتى بقائها، فلم يعد الذهول والاستغراب والخوف مما يجري أسلوب تعاطينا مع هذه المتغيرات، بل وحتى التفكير والمراجعة وابتكار آليات فاعلة هي الإجراءات التي تهيئ لنا استمرار وجودنا، والحفاظ على هويتنا الثقافية.

فالعولمة بكل ما جاءت به من قيم قد نوافق على بعضها ونرفض بعضها الآخر ولا يمكن الحديث عن الابتعاد عنها وتحاشيها وإنما لابد لنا بعد فهم ذواتنا وقيمنا أن نعمل على تصفية قيم هذه العولمة لنأخذ منها ما يزيد في تطورنا ويخرجنا من دائرة التخلف، وبالتالي معرفة هل نحن فعلا بحاجة إلى ما يسمى العولمة الغربية بكل ما جاءت به من قيم، وبالتالي التعرف على ما جاءت به الحداثة أمر ضروري ولابد منه والأخذ بقيمها أو تركها يبقى اختياري لدينا كمجتمع عربي مسلم بعد أن نضع أنفسنا في مكان يحق لنا فيه الاختيار وتكون لنا القدرة الواعية لتطبيق ذلك وفقا لما تقتضيه هويتنا الثقافية وقيمنا الإسلامية، ومنها نؤسس لحداثة إسلامية وفقا لمفاهيمنا وتشريعنا دون أن نهمل الحداثة الغربية في إطار الاستفادة من تجربتها اقتداء قياسا على ما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام لم يبدأ من الصفر في بناء أمته وإنما حافظ على الأخلاق الكريمة الموجودة في عصر الجاهلية ونفى السيئ منها وبناءً على الصالح منها فهو القائل عليه الصلاة و السلام (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، كل ذلك للوصول في النهاية لنهضة عربية إسلامية ليس فقط لمجتمعنا وإنما للبشرية كافة، وهذه هي العولمة التي يجب أن ننادي بها، وليس بإدخال نخورنا في ثقافات ليس لنا بها لا أصل ولا فصل.

5 - خلاصة:

على الرغم من وجود إجماع بين المراقبين للحياة الدولية على أن العمليات السياسية والأحداث والأنشطة في عالم اليوم لها بعد كوني دولي متزايد يرى بعض الباحثين :بأن هناك أربع عمليات أساسية للعولمة وهي : المنافسة بين القوى العظمى، والابتكار التقني (التكنولوجي) وانتشار عولمة الإنتاج والتبادل والتحديث.

إن هذا الأمر سيقود بالدرجة الأساس العديد من الأمم التي لها خصوصيتها إلى اتخاذ مجتمعاتها مواقف مختلفة ومتباينة من العولمة، حيث هناك معارك كبرى أيديولوجية وسياسية واقتصادية وثقافية تدور حول العولمة.

بالتالي القول بأن العلاقة بين الإعلام والهوية القافية في ظل العولمة هي علاقة تبادلية فيه نوع من المغالطة، فالأصل أن الإعلام في عصر العولمة هو المنفذ الأساس لتدفق المضمون الثقافي الغربي من أجل تعميم نمط ثقافي واحد تستخدم فيه كل التقنيات الحديثة وعلى رأسها تقنية الصورة والصوت.

من خلال ما مر بنا نرى أهمية الحديث عن شباب العالم العربي وقضاياه بصورة عامة، والشباب الجزائري على وجه الخصوص الذي تطلع إلى المحافظة على الهوية الثقافية النابعة من أصالة الأمة العربية وقوميتها وتراثها الحضاري، ورفضها للعولمة بمختلف أشكالها، لاسيما حينما يتعلق الأمر بأمركة العالم والصهيونية العالمية والأراضي المحتلة، نجد الشباب الجزائري يلتف حول هويته ويحاول الدفاع عنها.

الهوامش:

1/- خليفة، عبد اللطيف، 2007، التغير في نسق القيم لدى الشباب الجامعي: مظاهره وأسبابه على الموقع الالكتروني

http: www. badernarmoesari. info/ general 20% conference % papers. Doc.

2/ -موسي حلس، شكري صابر، 2002 ، الوعي الاجتماعي العربي، تحليل سوسيولوجي، مكتبة دار المنارة غزة.

3/- العلي، أحمد عبد الله ،2002، العولمة والتربية، دار الكتاب الحديث، القاهرة.

4/- محمد عمارة، نبيل أبو صعب، 2007، أثار العولمة على الهوية الثقافية، مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت.

5/- غليون برهان،1999 ، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دمشق، دار الفكر غربي، علي، 1999، العولمة وإشكاليات الخصوصية الثقافية، مجلة الباحث الاجتماعي،جامعة منتوري، العدد الثاني، السنة الثانية، قسنطينة.

6/- كنعان، أحمد،2000 ، العولمة والبحث العلمي واقعا وطموحا، ندوة العولمة والتعليم العالي والبحث العلمي في الوطن العربي المنعقد بجامعة العلوم والتقنيات والطب في تونس بالتعاون مع اتحاد الجامعات العربية20- 23/ 2000/11.

7/- حافظ عبد الفتاح وأخرون، 2000، علم النفس الاجتماعي ، القاهرة ، مكتبة زهراء الشرق. ص128.

8/- التويجري، عبد العزيز،1997، الهوية و العولمة من منظور حق التنوع الثقافي، منشورات الايسيكو.

9/- الجابري، محمد عابد، 1998، العولمة و الهوية الثقافية : عشر أطروحات، مجلة المستقبل العربي، العدد. (228).

10/- علم الدين، محمود، 1999، تعقيب ورقة حسن حامد، الاختراق في مجال الأخبار والمعلومات ندوة، الاختراق الإعلامي للوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط2.

11/- أبا السيد، ولد،2001، اتجاهات العولمة – إشكالات الألفية الجديدة- ، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دار البيضاء، المغرب.

12/- جلال أمين، 1998، العولمة، ط 2 ، دار المعارف ، القاهرة.

13/- يعقوب سعيد، 2002، الصهيونية والعولمة، الفكر السياسي، العدد السادس عشر، ص 264.

14/- السويدي، محمد، 1990، مقدمة في دراسة المجتمع الجزائري تحليل سوسيولوجي لأهم مظاهر التغيير في المجتمع الجزائري المعاصر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

15/- عماد علي، 2010 ، الحداثة وتأثيراتها على الهوية الثقافية في منطقتنا، مجلة المثقف، العدد 13.

16/- خريسان، باسم علي، 2001 ، العولمة والتحدي الثقافي، دار الفكر بيروت.

17/- عرسان، علي عقلة، 1999، العولمة والثقافة، مجلة الفكر السياسي، العددان4 – 5 .